لكي لا نكون فريسة.. للغفلة والجهل!

كلما أمعن المسلم النظر في فيما حملت نصوص الكتاب الكريم والسنة المطهرة، من حقائق عن اليهود، وما يضمون إلى العدوان الظاهر السافر: ما تغلي به صدورهم من الانحراف النفسي العميق.. ازداد يقيناً بأن ما حصل من هؤلاء الفئام من الناس عبر التاريخ، في موقفهم من أمة الإسلام، وما يحصل منهم في العصر الحاضر.. يبدو امتداداً طبيعياً لما كان عليه أسلافهم ـ وبئس الأسلاف ـ وأن الوقع الذي تعاني منه أمتنا اليوم، على ساحة العلاقة القاتلة معهم ـ مع ملاحظة الاستهانة بالمسؤولية من قِبَلِها نتيجة الانحسار الهائل لسلطان الإسلام في حياتها ـ صورةٌ لعلها أوضح في النكد والأذى من ذي قبل؛ لما أن العلم الحديث المنفصل عن الأخلاق، أمدَّهم ـ وهم يتعسَّفون في استخدامه ـ بما زاد خططهم ومسالكهم سوءاً على سوء، وكشف عن الآثار الناجمة عن تلك الحقائق التي أعلنت عنها نصوص الكتاب والسنة، ووقائع السيرة، بما لا يدع ريبة لمستريب، ويحدث القناعة في نفس من يريد مقنعاً: أن هؤلاء الأناسيّ هم أعداء الله ورسله، وكل ما فيه خير الإنسانية..

ولكن عداءهم للإسلام والمسلمين اليوم – ومعهم أعتى قوة في الأرض –، يبدو ـ كما كان عبر القرون ـ أكثر حدَّة وأوضح دلالة على خبث الطوايا وما تعتلج به النفوس من إصرار على الأذى بشتىٰ صوره وألوانه، بغية الوصول إلى ما ينشدونه ـ على سوئهم البالغ ـ من قرون

وقرون، مستعينين على ذلك بثغرات قاتلة في الصفوف، ومشايعة من كل من يرضيهم ما يغضبنا، ويفرحهم ما يغيظنا ويسوؤنا والمستعان الله: ﴿قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١١٩﴾﴾ [آل عمران: ١١٩].

وقد حملت إلينا بعض النصوص ـ كما رأينا من قبل ـ أن الأمر قد وصل بالقوم إلى الحد الذي جعلهم يحيّون رسول الله ﷺ بتحية تقطر بالضغن والاستهتار، وهي قولهم: «السَّام عليك»، والسَّام هو الموت، أو السأم عليك، أي تسأمون دينكم، كما سنرى في بعض الروايات.

ومن إعجاز الكتاب الكريم في توجيه المسلمين، وتربيتهم على الوعي الصحيح، والإفادة من الوقائع: أن الحديث عن سوء التحية اليهودية، جاء في أعقاب التنبيه على معاودتهم التناجيَ بالإثم والعدوان ومعصية الرسول ـ بعد أن نهوا عنه وحُذِّروا منه ـ بُغية إثارة القلق عند المسلمين، واستخداما لما نسميه اليوم بالحرب النفسية، ورطلاق الشائعات والتخرصات التي قدتفتُّ في عضد المجاهدين، وتحدث البلبلة الفكرية والنفسية في الصفوف. ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ﴾ [المجادلة: ٨].

هذا التناجي بالتهامس الماكر الظالم: يتبع التنبيهَ عليه، تقريرُ أن ما عمدوا إليه من تحيّة رسول الله ﷺ باللفظ الذي يقولونه، هو تحية سوء على وجه اليقين ﴿وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ﴾ [المجادلة: ٨] وإذا كان الأمر كذلك: فلا بد من التبصُّر في عطف الثانية على الأولى ـ وكلتاهما شر ـ إذ في ذلك ما يؤكد وجود الداء النفسيّ العضال؛ التناجي

الآثم الضال، والتحية المقيتة التي لم يحيِّ بها الله رسوله عليه الصلاة والسلام. وكأن في ذلك إرشاداً للمسلمين أن لا يغفلوا عن واقعةٍ ما من صنيع هؤلاءاليهود، وأن يعملوا على البحث عن الكلية التي ترتبط بها الجزيئات في سلوكهم وصنيعهم؛ وليكن ذلك مصحوباً بذاكرة، لا يقعدها النسيان عن الإفادة وسلامة التعليل؛ لأن الغفلة أو التغافل عن ذلك أشد وأنكى منه، وما أكثر الأدلة الصارخة في القديم والحديث على هذا الذي نقول.

ثم إن مما يجب تذكّره: ما سبقت الإشارة إليه من قبل: من الاستخفاف ومجاهرة الله بالتحدي، مع زعمهم التديُّنَ والالتزامَ بشرع السماء ﴿وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾ [المجادلة: ٨] ثم جاء الحكم الرباني على هذا التصرف العدواني على عقيدة التوحيد، مؤذناً بشر عاقبة في الآخرة وأسوأ مصير ﴿حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾.

أما بعد: فإن عطاء الآية هذه، على ساحة التبصير بحال من ابتلينا بهم، والتذكير بفقرات السلسلة النكدة من تصرفاتهم المرتبطة بانحراف الدخائل، ـ مضموماً إليها ما ثبت في صحاح الأحاديث، من الكشف عن مؤشرات السلوك الذي نومئ إليه. . ـ إن هذا كلّه جدير بأن يأخذ مكانه على ساحة العظة والاعتبار والتذكُّر، في ظل المناخ الذي ندرك أبعاده في علاقة الأمة باليهود وأعوانهم وسدنتهم الظاهرين والأخفياء.

هذا: وقد رأينا من قبل ما جاء في رواية الإمام أحمد من أن الباعث على تحية السوء عند اليهود: هو الحسد. . . ولعل من الخير أن نستذكر ما

روى البخاري بسنده عن الزهري أنه قال: أخبروني عن عروة عن عائشة – رضي الله عنها – قالت: «دخل رهط من اليهود على رسول الله ﷺ فقالوا: السَّام عليك ففهمتها، فقلت: عليكم السَّام واللعنة، فقال رسول الله ﷺ: مهلاً يا عائشة فإن الله يحب الرفق في الأمر كله، فقلت: يا رسول الله أولم تسمع ما قالوا؟ قال رسول الله: فقد قلت: عليكم».

ويبدو أن الرسول عليه الصلاة والسلام، كان على يقين من إصرارهم على هذه التحية له وللمسلمين، لما أنها انعكاس طبيعي لما تعتمل به صدورهم من الحسد الباغي والحقد الدفين، لذا وجّه المسلمين إلى أن يردوا على اليهود ـ إذا حيُّوهم ـ بالذي رد به هو عليه الصلاة والسلام من قوله. «عليكم» أو «وعليكم». ذلك ما أورد البخاري بعد الحديث السابق بسنده عن ابن عمر – رضي الله عنهما – أن رسول الله ﷺ قال: «إذا سلَّم عليكم اليهود، فإنما يقول أحدهم: السّام عليكم فقل: وعليك». هكذا يعلم رسول الله المسلمين ويربيهم على الوعي واليقظة، لكيلا يقعوا فريسة الغفلة، والجهل بالواقع في علاقتهم باليهود. «اليهودي يقول: السام عليك فقل: وعليك».

ومن فقه الإمام البخاري: أنه جاء برواية أخرى تحت بابٍ جعل عنوانه «إذا عرّض الذمي أو غيره ولم يصرّح نحو قوله: السام عليكم» من (كتاب استتابة المرتدين والمعاندين وقتلهم) من جامعه الصحيح، ذلكم ما روى بسنده عن هشام بن زيد بن أنس بن مالك قال: سمعت أنس بن مالك يقول: «مر يهودي برسول الله ﷺ فقال: السام عليك، فقال رسول

الله ﷺ: وعليك. فقال رسول الله ﷺ: أتدرون ما يقول؟ قال: السام عليك. قالوا: يا رسول الله ألا نقتله؟ قال: لا، إذا سلّم عليكم أهل الكتاب: فقولوا: وعليكم».

وأنت ترى هنا أن النبي عليه الصلاة والسلام ذكر في هذا الحديث أهل الكتاب ـ من يهود ونصارى ـ على العموم. وقد جاء البخاري بهذا الحديث مختصراً بعد الرواية التي كنا بصددها من قبل، وقد أتى بها تحت (كتاب الاستئذان)؛ إذ روى بسنده عن أنس بن مالك – رضي الله عنه – أنه قال: قال النبي ﷺ: «إذا سلم عليكم أهل الكتاب فقولوا: وعليكم».

صلى الله وسلم وبارك على رسول الله المبيِّن عن الله ما أراد، وجزاه عن الأمة وعن بني الإنسان كافة ما هو أهله.

وبعد: فما أحسب عاقلاً يرتاب في أن هذا التوجيه وأمثاله من النبي ﷺ في شأن هؤلاء الناس، يعطي الدليل القاطع ـ ورسول الله هو الشارع وهو الأسوة الحسنة ـ على وجوب اليقظة، والعمل الجاد على توعية المسلمين وجعلهم في المستوىٰ الذي يدركون معه الحقائق من مواردها، وأن عليهم أن يستأنفوا طريق الانتفاع بالهدي النبوي ووقائع التاريخ ـ وما أكثرها ـ فيتحرّكوا في ميادين المواجهة، وقد أعدوا القوة المستطاعة بألوانها جميعاً؛ إذ ما معنى أن ينبه عليه الصلاة والسلام حتى على التحية، في بيانه الواضح الجلي لما جاء في الكتاب العزيز! ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ٢١]...

جهنم حسبهم.. وظاهرة استبطان السوء

سوء التحية الذي كان اليهود يواجهون به النبي ﷺ والمسلمين، بدافع ما يملأ نفوسهم من الحقد والغيظ: بدا من الروايات الصحيحة الموثقة، أنه قد أخذ حيِّز الظاهرة، لما أنه قد وقع غير مرة ـ على ما يبدو ـ فلم يقتصر الأمر على ما شهدت عائشة – رضي الله عنها – بنفسها، بل تعدى ذلك إلى وقائع أخرى تؤكد هذا المسلك العمدي، الذي تنكره أبسط الأعراف الاجتماعية، فضلاً عن أحكام الدين، وما بينهم وبين رسول الله ﷺ من الموادعة.

من ذلك تلك الواقعة التي وردت في حديث أنس – رضي الله عنه – والتي قصّت علينا ـ كما روى البخاري ـ قصة ذلك اليهودي الذي تكرر منه قوله لرسول الله ﷺ : السام عليك وردُّ رسول الله ﷺ بقوله: «وعليك»، وأنه – ﷺ – بيَّن للصحابة حقيقة ما يقول اليهودي: استأذنه الصحابة في قتله، ولكن رسول الله عليه الصلاة والسلام لم يرتض ذلك، فقال: لا، وعلَّمهم كيف يردون التحية لأهل الكتاب ـ على وجه العموم ـ بقوله: «إذا سلَّم عليكم أهل الكتاب فقولوا: وعليكم ـ أو ـ وعليك ـ كما في بعض الروايات ـ» وفي بعض الروايات عند البخاري تخصيص لليهود؛ وذلك بقوله ﷺ : «إن اليهود إذا سلَّموا على أحدكم إنما يقولون: سام عليك، فقل: وعليك».

ومما يجدر ذكره أن رسول الله ﷺ ـ وهو يعمل على تربية المسلمين على الوعي والإدراك لما حولهم ـ كان يحرص على أن تكون هذه التربية متكاملة تتحقق معها سلامة البنية الفكرية للمسلم، الذي يراد بناؤه على التكامل وعياً لرسالته، وإدراكاً لما حوله؛ فترى التوجيه إلى الأخذ بالأسباب في إدراك للكليات والجزئيات. وفي الوقت نفسه، ترى الحرص على تنمية الذوق الإيماني، واليقين بما عند الله من الإمداد بالخير والإحسان، وأن سنته في نصر المؤمنين لا تتخلف، إن هم استقاموا على الطريقة، وأخذوا بالأسباب، وصدقوا في السير مع ما تقتضيه سننه الحكيمة ـ جل شأنه ـ وما أقام عليه الكون من ربط الأسباب بالمسببات... وأنه يستجيب لهم في الدعاء على أعدائهم الظالمين المعتدين، إن هم لجؤوا إليه خاشعين، وتضرعوا إليه صادقين، وأنه ـ سبحانه ـ لا يستجيب لأعدائهم العتاة البغاة فيهم، وذلك من عدله ورحمته سبحانه.

ذلكم ما حملت إلينا بعض الروايات الواردة في شأن الواقعة التي أغضبت بعد التكرر عائشة – رضي الله عنها –، من صنيع أولئك الرهط من اليهود، بتحيتهم الآثمة التي حيّوا بها رسول الله ﷺ مرة بعد مرة؛ فتحت (كتاب الدعوات) من الجامع الصحيح عقد البخاري باباً عنوانه: «قول النبي ﷺ: يستجاب لنا في اليهود. ولا يستجاب لهم فينا» وقال هناك: حدثنا قتيبة بن سعيد قال: حدثنا عبد الوهاب قال: حدثنا أيوب عن ابن أبي مليكة عن عائشة – رضي الله عنها – «أن اليهود أتوا النبي ﷺ فقالوا: السام عليكم قال: وعليكم، فقالت عائشة: السام عليكم

ولعنكم الله وغضب عليكم فقال رسول الله ﷺ : مهلاً يا عائشة عليك بالرفق وإياك والعُنْفَ ـ أو الفحش ـ قالت : أو لم تسمع ما قالوا؟ قال : أو لم تسمعي ما قلت؟ رددت عليهم : فيستجاب لي فيهم، ولا يستجاب لهم في ».

فمن رحمة الله تعالى أنه يستجاب لنا فيهم، ولا يستجاب لهم فينا؛ وهذا أيضاً محض العدل منه سبحانه؛ لأنهم هم البادئون بالإساءة واستبطان السوء حتى في التحية؛ وقد رأينا من قبل في رواية الإمام أحمد في قول النبي ﷺ : « مَهْ إن الله لا يحب الفحش ولا التفحش قالوا قولاً فرددناه عليهم، فلم يضرنا شيء ولزمهم إلى يوم القيامة ». وقال الحافظ ابن حجر في شأن قول النبي ﷺ : « رددت عليهم فيستجاب لي فيهم ولا يستجاب لهم فيَّ ». (ويستفاد منه أن الداعي إذا كان ظالماً من دعا عليه، لا يستجاب دعاؤه ويؤيده قوله تعالى : ﴿ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلَالٍ ﴿٥٠﴾ ﴾ [غافر : ٥٠]).

ونحن واجدون عند الإمام مسلم رواية من طريق جابر بن عبد الله رضي الله عنه يقول فيها : « سلَّم ناس من يهود على رسول الله ﷺ فقالوا : السام عليك يا أبا القاسم. فقال : وعليكم، فقالت عائشة ـ وغضبت ـ : ألم تسمع ما قالوا؟ قال : بلى قد سمعت عليهم فرددت عليهم، وإنا نجاب عليهم ولا يجابون علينا ».

هذا : وروى الإمام الطبري بسنده عن مسروق عن عائشة قالت : « جاء ناس من اليهود إلى النبي ﷺ فقالوا : السام عليك يا أبا القاسم فقلت :

السام عليكم وفعل الله بكم وفعل، فقال النبي ﷺ: يا عائشة إن الله لا يحب الفحش، فقلت: يا رسول الله ألست ترىٰ ما يقولون؟ فقال: ألست ترينني أرد عليهم ما يقولون؟ أقول: وعليكم؛ وهذه الآية في ذلك نزلت ﴿ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٨﴾ ﴾ [المجادلة: ٨]» كما أخرج بسنده عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - رواية جاءت بلفظ «السأم عليكم» بالهمز، من السآمة، إذ جاء فيها قول النبي ﷺ - بعد أن رد الصحابة السلام على اليهودي -: «هل تدرون ما قال: قالوا: سلَّم يا رسول الله، قال: بل قال: سأم عليكم!! أي تسأمون دينكم، فقال النبي ﷺ: أقلت: سأم عليكم: قال: نعم، فقال النبي ﷺ: إذا سلم عليكم أحد من أهل الكتاب فقولوا: وعليكم، أي عليك ما قلت».

وعلى هذه الساحة وتعليم النبي ﷺ الأمة كيف ترد التحية على هؤلاء - وكم في ذلك من دروس وعِبَرٍ - نذكر ما أخرج الإمام أبو داود في «السنن» بسنده عن عبد الله بن دينار عن عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله ﷺ: «إن اليهود إذا سلّم عليكم أحدهم فإنما يقول: السام عليكم فقولوا: وعليكم» وقد صوَّب الإمام الخطابي ما ذهب إليه الإمام سفيان بن عيينة من رواية الحديث بلفظ «عليكم» بحذف الواو. قال أبو سليمان في كتابه «معالم السنن» شارحاً لحديث أبي داود: (هكذا يرويه عامة المحدثين «وعليكم» بالواو، وكان سفيان ابن عيينة يرويه «عليكم» بحذف الواو، وهو الصواب؛ وذلك أنه إذا حذف الواو صار قولهم الذي قالوه بعينه مردوداً عليهم، وبإدخال الواو يقع

الاشتراك معهم، والدخول فيما قالوه، لأن الواو حرف العطف والجمع بين الشيئين. والسام فسروه بالموت).

وبعد: فكم نكون على فقه سليم للوقائع، وقدرة على الإفادة من الترابط بينها: إذا ذكرنا ما كان من عتو اليهود، ومجاهرتهم الخالقَ بالكلمة الباغية، حين كانوا يقولون بعد كل ما بدر منهم من المساءة: ﴿ لَوْلا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ ﴾ وكيف ردَّ الله تعالى عليهم بقوله جل وعلا: ﴿ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ إنهم يفعلون ما يفعلون، ويقولون بأفواههم محرفين الكلام، مبهمين السلام في الظاهر، عامدين أن يكون شتماً ومسبّةً في الباطن، ومع هذا يقولون في أنفسهم: لو كان محمداً نبياً لعذبنا الله بما نقول له في الباطن؛ لأن الله يعلم ما نُسره، فلو كان نبياً حقاً، لأوشك الله أن يعاجلنا بالعقوبة في الدنيا، فقال تعالى ـ وهو الذي يعلم ما يُسرُّ عباده وما يعلنون ـ: ﴿ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ ﴾، أي كفايتهم في الدار الآخرة يصلونها؛ ﴿ فَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ الذي يؤولون إليه. يقرر ذلك ويؤكده ما أخرج الإمام أحمد بسنده عن عبد الله بن عمر – رضي الله عنهما – « أن اليهود كانوا يقولون لرسول الله ﷺ: (سام عليكم) ثم يقولون في أنفسهم: لولا يعذبنا الله بما نقول. فنزلت هذه الآية: ﴿ ... وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾.

والحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله.

وصلوات الله وأزكى تسليماته على من أدىٰ أمانة البلاغ على أتم وجه وأكمله، وعلى آله وصحابته أجمعين.

بشَّر بمبعثه.. وكفر به بغياً وظلماً

هذا حديث موصول بالكلام على لون معيّن من أخلاق يهود، رأينا من قريب مصداق وجوده المتأصل في خبايا النفوس لديهم؛ وذلك فيما أخبر به الكتاب الكريم وبيانه من سنة المصطفى عليه الصلاة والسلام، وتعددت الأدلةالتي تؤكده حتى بدا بعضه ظاهرة في السلوك عندهم.

وليس من نافلة القولك التذكير بأن المهم في الموضوع: أن ينتفع المسلمون لواقعهم بما هداهم إليه كتاب ربهم سبحانه وتعالى، وحديث نبيهم عليه الصلاة والسلام، وأكدته التصرفات التي لم يعرف الحياء إليها سبيلاً، فلا الحياء من رسول الله ﷺ كان بالحسبان، عندما مردوا على أن يحيوه بما لم يحيِّه به الله، وأن يتناجوا بالإثم والعدوان ومعصيته عليه الصلاة والسلام، قصداً لإحداث الرعب وإيجاد الخلخلة في صفوف المسلمين، ولا الحياء من الله كان له أي وجود في قلوبهم، بعد سوء الأدب والسلوك الباطني في التحية عندما وقفوا وقفة التحدي لقدرته تعالى وعلمه: ﴿لَوْلا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾ [المجادلة: ٨].

وإذا انتفع المسلمون بهدي الكتاب والسنة في شأن المغضوب عليهم: حازوا فضيلتي الدنيا والآخرة؛ فمن ناحية الواقع في الدنيا: يفيدون على صعيد مواجهة العدو، فيعملون على إعداد القوة المناسبة ـ مهما تعددت أسباب تحقيقها وتكاثرت صورها حسب التطور العلمي والاقتصادي ـ

وعلى الصعيد الأخروي: ينالون أجر تصديقهم، وحسن تدبرهم لما جاء عن الله وعن رسوله صلوات الله وسلامه عليه.

ولقد يُرى أن بعض النصوص، يتكرر إيرادها في بعض الحالات: والباعث على ذلك في واقع الأمر، الحرص على المزيد من تجلية ما عرضت له النصوص الكريمة، من حقائق ليس من السهل التغاضي عنها، أو الغفلة عن توظيفها في ميدان معركةٍ ـ ما أطول أمَدَها ـ مع أعداء الأمس واليوم.

على أن الحنكة السياسية من منظور إسلامي على هذه الساحة، توجب أن يفيد المسلمون من تلك الحقائق، فينظروا إلى الحاضر في علاقتهم باليهود بعين مبصرة، لا تهمل الماضي، ولا تنسى الواقع التاريخي الأليم، كل أولئك مع التبيُّن الواضح لطبيعة العلاقة بينهما.. وما أيسر ذلك على من تدبّر الكلمات الهاديات ببصيرة، ولم يدع أن يُكلِّف نفسه عدم الاستهانة بذاكرة التاريخ!!

وفي متابعة لرحلة الاستهداء بنبع الهداية الأصيل: نقع على واحد من الأمثلة الصارخة التي تدل على أن اليهودي لا يفتأ ـ حسداً وبغياً ـ يتجاوز الحق إلى الباطل ـ ما وسعه التجاوز ـ حتى لو كان هو نفسه قد أعلن في الناس هذا الحق، وحاول جاهداً أن يقيم عليه الدليل، وتلك ظاهرة لا يعوزك أن تجد لإثباتها ما يكفي ويشفي من الوقائع!!

جاء في مسند الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ: حدثنا عبد الله قال: حدثني أبي قال: عن ابن إسحاق قال: حدثني صالح بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف عن محمود بن لبيد أخي بني عبد الأشهل عن سلمة

ابن سلامةَ بنِ وقشٍ ـ وكان من أصحاب بدر ـ قال: كان لنا جار يهودي في بني عبد الأشهل، قال: فخرج علينا يوماً من بيته قبل مبعث النبي ﷺ بيسير، فوقف على مجلس عبد الأشهل، قال سلمة: وأنا يومئذ أَحْدَثُ من فيه سناً، عليَّ بُردة مضطجعاً فيها بفِناء أهلي، فذكر البعث، والقيامة، والحساب، والميزان، والجنة والنار؛ فقال ذلك لقوم أهلِ شرك، أصحابِ أوثان، لا يرون أن بعثاً كائنٌ بعد الموت، فقالوا له: ويحك يا فلان ترى هذا كائناً أن الناس يُبعثون بعد موتهم إلى دارٍ فيها جنةٌ ونارٌ يُجزَون فيها بأعمالهم؟ قال: نعم والذي يُحْلَف به: لودَّ أن له بحظه من تلك النار أعظمَ تَنور في الدنيا، يحمُّونه ثم يُدخلونه إياه، فيطبقُ به عليه، وأن ينجوَ من تلك النار غداً. قالوا له: ويحك! وما آية ذلك؟ قال: نبي يبعث من نحو هذه البلاد ـ وأشار بيده نحو مكة واليمن ـ قالوا: ومتى نرَاه؟ قال: فنظر إليَّ ـ وأنا من أحدثهم سنًّا ـ فقال: إن يستنفِدْ هذا الغلام عمُره يدركْه. قال سَلَمةُ: فو الله ما ذهب الليل والنهار حتى بعث الله رسوله ﷺ ـ وهو حي بين أظهرنا ـ فآمنا به وكفر به بغياً وحسداً، فقلنا: ويلك يا فلان، ألست الذي قلت لنا فيه ما قلت؟ قال: بلى وليس به».

أرأيت.. يبدو أن هذا الرجل اليهودي كان على شيء من العلم بما جاء في التوراة، قبل التبديل وتحرف الكلم عن مواضعه؛ هاهو ذا يتحدث عن البعث والقيامة والحساب والميزان والجنة والنار... وكلٌّ ذلك من الإيمان الذي بعث به الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فالقيامة تقوم والناس يُبعثون بعد الموت، والله تبارك وتعالى يضع الموازين القسط، فيحاسب كل إنسان على صنيعه في الدنيا، ويجزيه بما قدّم، والعاقبة إمّا

جنةٌ عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين.. وإما نارٌ تلظى وبئس المصير. والذي نبَّه إليه سلمةُ - رضي الله عنه -: أن اليهودي لما ذكر البعث والقيامة والحساب والميزان والجنة والنار.. قال ذلك لقوم أهلِ شرك أصحابِ أوثان، لا يرون أن بعثاً كائن بعد الموت؛ لأنهم لا يؤمنون باليوم الآخر، ونظرُهم لا يتجاوز هذه الحياة الدنيا، ففيها البداية - على زعمهم - والنهاية. من أجل هذا: لم يكن يسيراً عليهم أن يتصوروا ما قاله الرجل، فضلاً عن أن يصدقوه. ولذلك كان منهم الاستغراب الشديد،؛ إذ قالوا له: ويحك يا فلان، ترى هذا كائناً، أن الناس يُبعثون بعد موتهم إلي دار فيها جنة ونار يُجزَوْنَ فيها بأعمالهم؟ وكان من اليهودي الإصرارُ المقترنُ بشيء من الإيضاح، وإعطاءِ الصورة العملية لما يكون من ذلك الإنسان الذي يُعدُّ من أهل النار، وكيف أنه يتمنى ن يزحزح عن النار بما يكون من ثمن - مع أن القضية هذه من الغيب، والإيمان بوقوعه: لابد أن يسبقه الإيمان باليوم الآخر - إذ قال لهم بعد الذي بدا من استغرابهم واستبعادهم: «نعم والذي يُحلَفُ به يتمنى لو أن له بحظِه من تلك النار أعظمَ تنُّور في الدنيا يحمُّونه ثم يدخلونه إياه فيطبقُ به عليه، وأن ينجو من تلك النار غداً».

وحاول القوم أن يُعملوا عقولهم، فسألوه عن الدليل الذي يؤيد به دعواه ويثبتُ ما يقول، لقد قالوا له: ويحك وما آية ذلك؟ يعني - وما علامة ذلك الذي تدعي والدليل عليه؟ - قال اليهودي في الجواب: «نبي يبعث من نحو هذه البلاد وأشار بيده نحو مكة واليمن..» ولم يكن عجباً من العجب أن يشددوا عليه في المسألة فيطلبوا منه تحديد الزمان

الذي يبعث فيه النبي المنتظر ـ بعد أن حدد لهم المكان على وجه التقريب ـ وحددّ ذلك لهم بِسِنِّ سلمة ـ رضي الله عنه ـ حين قال: «إن يستنفدْ هذا الغلام عمره يدركه».

وبُعث النبي ﷺ ـ واليهودي حيٌّ يرزق ـ وآمن برسول الله من آمن من أهل المدينة، وهم كثير كثر؛ إذ لم يبق بيت من بيوتها إلا دخله الإسلام، وأبى الرجل الإيمان، وكفر بالرسول ﷺ حسداً وبغياً. وعندما ووُجِهَ بالحقيقة، وقال له من حدثهم بالأمس عن محمد عليه الصلاة والسلام: ويلك يا فلان ألست الذي قلت لنا فيه ما قلت؟ قال «بلى وليس به». اعترف بأنه قال ما قال في شأنه لكنه بدافع من الحسد والبغي: أنكر أن يكون الرسول الكريم هو المقصود بما قال «بلى وليس به».

ألا إن هذه الواقعة ـ من حيث هي ـ أنموذج دال على الذي أدرنا عليه الحديث، ولكنها ـ في الوقت نفسه ـ مؤشر يومئ إلى الظاهرة، ظاهرةِ جحودِ الحق حين يهوى المغضوب عليهم الجحود، وما إلى ذلك من تلك الأمراض المستعصية في النفوس والله من ورائهم محيط.

أمانة الحقائق.. وظاهرة الكفران عندهم

حاجتنا إلى التذكير بما جاء في الكتاب العزيز، والسنة المطهرة، وسيرة الرسول عليه الصلاة والسلام؛ من حقائق عن اليهود، ووقائع تكشف عن خلائقهم، والسمات التي تطبع سلوكهم وتوجه مواقفهم من الحق وأهله بعامة ـ والمسلمين بخاصة.. هذه الحاجة يساويها ـ إن لم يفضلها ـ الحاجة إلى اعتقاد أن الحقائق المشار إليها: أمانة في أعناق المسلمين، هم مسؤولون عن وعيها وإدراك أبعادها، والإفادة منها،في مواجهتهم أولئك الذين لا يرقبون في الإسلام وأهله شيئاً من الحق أو العدل؛ فنصوص القرآن والسنة لم تُعنَ تلك العناية بأخبار اليهود: عبثاً، ولا حفلت بذكر كل ما يكون طريقاً إلى معرفة خلائقهم والسمات المميزة لسلوكهم: قصداً إلى تزجية الوقت، وتسلية المسلمين، معاذ الله أن يكون شيء من ذلك في الكتاب الذي أنزله الله هداية ورحمة وشفاء لما في الصدور، أو في السنة التي هي من الوحي غير المتلو؛ إذ إن رسول الله لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى، وطاعته ﷺ من طاعة الله عز وجل: ﴿مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَن تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾﴾ [النساء: ٨٠] ووقائع السيرة تحمل من الدروس والتطبيق العملي لما جاء في القرآن والسنة، ما لا يقع في الغفلة عنه أو عدم الانتفاع به، إلا من سفه نفسه وجنح عن الصراط المستقيم.

وهكذا: فما ورد من المعلومات والحقائق، وكلٌ ما فيه دلالة على نهج

القوم ومنطلقاتهم في التعامل والسلوك.. إنما ورد للعلم والتربية، والعمل على الإعداد وأخذ الحِذر واليقظة، وليس مقصوداً به العرضُ التاريخي المنفصل عن العقيدة ووجوب العمل. وأيان شرَّقت أو غرَّبت: يعوزك أن تقع على منصف لا يعيذ المؤمنين الذين يحملون رسالة الخير والهدى، وهمهم مرضاة الله ورسوله وتحقيق كلمة الله العادلة في الأرض.. لا يعيذهم أن يقعوا في شيء من ذلك.

فليس لمؤمن ولا مؤمنة خيرة من أمرهم بأن يقول الواحد منهم: (أريد) أو (لا أريد) مهما كانت الذريعة أو الباعث أمام الذي جاء عن الله أو رسوله ﷺ، ولقد آذن الله تبارك وتعالى المؤمنين بهذه المقولة الجذرية الأساسية ـ وهم يخوضون معارك المواجهة مع مثلث الأذى: اليهود والمشركين والمنافقين ـ ويتحركون علماً وعملاً وجهاداً لبناء المجتمع المسلم والدولة المسلمة، وتنقية الأجواء من أذى المؤذين وفساد المفسدين، لتكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى.. ذلكم قول الله تبارك في سورة الأحزاب: ﴿ **وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا** ﴿٣٦﴾ ﴾ [الأحزاب: ٣٦].

أقول هذا في أعقاب ما سعدنا باصطحابه من قريب: مما روى الإمام أحمد في مسنده في شأن ذلك اليهودي الذي كشف في مجلس لبني عبد الأشهَل في المدينة ـ والقومُ أهل شرك أصحاب أوثان لا يرون أن بعثاً كائن بعد الموت ـ كشف عن عقيدة الإيمان باليوم الآخر فذكر ـ كما جاء

في الرواية ـ البعث والقيامة والحساب والجنة والنار، وأن كلاً مسؤول عن عمله يوم القيامة ومجزيٌّ به إن خيراً فخير وإن شراً فشر، وعندما استغرب القوم، وسألوه البرهان على ما يقول. أخبرهم أن آية ذلك نبي يبعث من هنا ـ وأشار إلى مكة واليمن أو إلى مكة كما في بعض الروايات ـ وعندما شدَّدوا عليه في المسألة، فطلبوا تحديد الزمان بجانب ما أشار إليه من تحديد المكان، خرج عليهم بالمهلة القريبة، وأن سَلَمَة بنَ سلامة بنِ وقش ـ وكان أصغر القوم سناً ـ إن يستنفِدْ عمْرَه يدركه.. وبُعث الرسول عليه الصلاة والسلام، وآمن به الناس ـ وفيهم سلمة رضي الله عنه ـ وفوجئوا بكفر اليهودي وجحوده ودعواه من جديد: أن محمداً ﷺ ليس الرسول الذي حدثهم عنه. ذلك ما أضرب به سلمة ـ رضي الله عنه ـ: « فوالله ما ذهب الليل والنهار حتى بعث الله رسوله ﷺ وهو حي بين أظهرنا فآمنا به وكفر بغياً وحسداً فقلنا له: ويحك يا فلان ألست الذي قلت فيه ما قلت؟ قال: لى لكنه ليس به ».

والذي يكشف عن أن الذي جعله يتعثر ولا يؤمن، هو الحسد والبغي: ما يرى من التناقض الفاضح؛ فقد حدَّد لبني عبد الأشهل المكان والزمان ـ تقريباً بصورة دقيقة ـ.... وحين نكص على عقبية قال: بلى ـ يعني قلت ما قلت، ولكنه ليس به، أي ليس بالمبعوث الذين عيَّنتُ مكان مبعثه وزمانَه، آيةً دالةً على صدق ما ذكرت لكم من البعث والقيامة والحساب والعذاب والجنة والنار، وأن الواحد من أهل النار يتمنى لو يناله أقسى شيء من نار الدنيا ويعافى من العذاب في جهنم.

هذا: وقد جاء حديث هذه الواقعة أيضاً عند أبي عبد الله الحاكم في

«المستدرك» تحت كتاب معرفة الصحابة بنحو ما جاء عند أحمد، حيث روى بسنده عن صالح بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف عن محمود بن لبيب عن سلمة بن سلامة بن وقش أنه قال: كان لنا جار من يهود في بني عبد الأشهل. قال: فخرج علينا يوماً من بيته حتى وقف على بني عبد الأشهل، قال سلمة: وأنا يومئذ حَدَثٌ عليَّ بردة لي مضطجع فيها بفناء أهلي، فذكر القيامة والبعث والحساب والميزان والجنة والنار قال: فقال ذلك في أهل يثرب، والقوم أصحاب أوثان لا يرون بعثاً كائناً بعد الموت، فقالوا له: ويحك أترى هذا كائناً يا فلان؛ أن الناس يبعثون بعد موتهم إلى جنة ونار ويجزون فيها بأعمالهم، قال: نعم والذي يحلف به، قالوا: يا فلان ويحك، وما آية ذلك؟ قال: نبي مبعوث من نحو هذه البلاد وأشار بيده إلى مكة، قالوا: ومتى نراه؟ قال: فنظر إليَّ وأنا أصغرهم سناً فقال: إن يستنفدْ هذا الغلام عمره يدركْه. قال سلمة: وهو حي بين أظهرنا، فآمنا به، وكفر ـ بغياً وحسداً ـ فقلنا له: ويحك يا فلان، ألست الذين قلت لنا فيه ما قلت؟ قال: بلى ولكنه ليس به» قال الحاكم: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ـ يعني البخاري ومسلماً ـ وقد وافقه الذهبي على ذلك إذ رمز برواية مسلم.

على أن الحديث قد رواه ابن إسحاق من حديث سلمة بن سلامة ابن وقش، والإمام أحمد ـ كما رأينا ـ وصححه ابن حبان من طريقه.

ولعل من المفيد أن نشير إلى أن راوي الحديث ـ وهو سلمة بن سلامة بن وقش ـ صحابي جليل يكنى أبا عوف، شهد العقبة الأولى والعقبة

الثانية مع السبعين في قول جميعهم، كما شهد بدراً والمشاهد بعدها مع رسول الله ﷺ، ومات سنة خمس وأربعين بالمدينة، وقد جزم الإمام الطبري بأنه مات وهو ابن أربع وسبعين سنة. أما الحاكم أبو عبد الله. فيرى أنه مات وهو ابن سبعين سنة. رضي الله عن الصحابي سلمة وأرضاه، وجزاه الله خير جزائه على ما أوضح في هذه الواقعة، وكشف عن الحقيقة في صنع هذا اليهودي الذي يعتبر تصرفه إشارة إلى الظاهرة اليهودية في الكفران ومظاهرة الباطل على الحق.

﴿رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: ٨].

odeikandl.com

الدَّخل المستعصي.. ووجوب الاعتبار

كلما ازداد المسلم بصيرة بما كان من عطاء الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية ولغة الوقائع العملية في السيرة والتاريخ في شأن اليهود، بشتى صنوفهم.. كان أقدر على تبيُّن الشلل القاتل في عقول من يحسنون الظن بمصادر السوأى، ويخرجون ـ باسم الموضوعية والتجرد في الحكم بعيداً عن الرواسب كما يزعمون ـ إلى الوقوع في لجة الضياع والغفلة، والخروج بأحكام قد لا تمت إلى الحقيقة والتجرد الموضوعي بصلة.

وليس من التفكه الفكري، أو تزجية الوقت بالمغالاة وتحميل الأمور مالا تحمل: أن يجنح العاقل، بعد الفهم والتدبر للنصوص والوقائع ـ على اختلاف الأزمنة والأشخاص فضلاً عن تنوع الملابسات ـ إلى تقرير الحقيقة كما هي ـ بعيداً عن البهرج الذي يسخِّره إعلامهم، والرعب الذي أدخلوه على كثير من النفوس في العالم، بما يصطنعون من أساليب تهدف إلى الخلاص ممن يقف موقف المناهض لهم، أو المظاهر لأعدائهم ـ زعموا ـ والخوف الذي كان وما يزال، شعار من يجفون الحقيقة وينحازون إلى صف القاعدين تحت شعار.. ﴿نَخْشَى أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ﴾ [المائدة: ٥٢].

دعاني إلى هذا التقديم ـ وأخشى أن يكون من مكرور القول ـ ما كان من عطاء عدد من النصوص والوقائع التي لامست الدَّخَل المستعصيَ في تلك النفوس، وحركت في المسلمين بواعث البعد عن العامية في فهم

الارتباط بين التصرفات وبين ذلك الدخَل. وكم تنتفع الأمة لحاضرها، إذا أحسنت فهم الماضي وطبيعة المواجهة في ساحات المواجهة، بعد أن منَّ الله عليها بالبيان المعجز في كتابه، والتحليل الدقيق الفذّ، في حديث من أؤتمن على البلاغ والتبيين محمدٍ عليه الصلاة والسلام.

وفي نظرة متدبرة ـ على هذا السنن ـ نجد أن من الحقائق التي تفصح عنها النصوص ويؤيدها التاريخ وما يزال، وتكسبها الوقائع جِدَّتَها ورسوخها يوماً بعد يوم: أن حاضر اليهود في سلوكهم المناهض للحق الذي نزل به وحي السماء، وللأخلاق التي لا تنفك عن الدين وعما يرتضيه العقل السليم، وفي أساليبهم الملتوية الماكرة في العلاقة بالآخرين؛ عبادةً للمادة، واستهتاراً بالإنسان، وعدواناً على المسلّمات التي يعرفونها كما يعرفون أبناءهم.. من الحقائق على هذه الساحة.. أن حاضر اليهود ـ وهو على هذه الشاكلة ـ ذو نسب واضح لا ينخرم، إلى ماضيهم المعروف، وبخاصة في علاقتهم برسولنا ﷺ والمسلمين.

والزَّغَلُ المردي في نفوسهم، والذي يتمثل في الحسد والبغي وما إليهما: خَلَّةٌ بارزة عملت في الماضي، وتعمل عملها في الحاضر، لتكون ـ واللام للعاقبة ـ باعثاً متجدداً يأخذ أبعاده وينتج آثاره في هذا المضمار، على اختلاف المكان والزمان والقيادات.

فعلى كل ما يُحاز لهم من أمور الدنيا، ومظاهر التعالي والتفاخر اللذين أسهم في طرحهما على أرض الواقع: تخلف الأمة الإسلامية عن إسلامها علماً وعملاً وجهاداً، وانتفاعاً بواقع السيرة والتاريخ ـ على

وجه العموم ـ. على كل ما يُحاز لهم من ذلك تجدهم لا يفتؤون يمكرون بالمسلمين، مستعينين بمن يشاركونهم الحقد الآثم، ويعملون حسداً وبغياً من عند أنفسهم على أن لا تقوم لأمتنا قائمة، ويودّون لو أن المسلمين ينقلبون إلى جاهلية مُحدَثة، يولّون معها وجوههم شطر الانخداع الكاذب بالضلال، والصد عن سبيل الله، وبذلك يقعون في حمأة الخسر لدينهم ودنياهم جميعاً، ولا تسل عما يكون من واء ذلك!!

والعهد قريب بما رأينا من أنهم ـ بجانب البغي العام ـ حسدوا المسلمين كما أخبر النبي عليه الصلاة والسلام على أمور محدّدة بأعيانها.

وأكثر من هذا: لقد كان الدخَل في النفوس: من حسد وغلٍ وغيظٍ ونحوها، باعثاً على الأذى والفتنة، وعاملاً من عواملَ العبث والاستخفاف بالحق الصراح الذي لا يقبل الاحتمال ـ حتى من وجهة نظرهم.

أو ليس من العدوان على الحق، والاستهانة به تحت وطأة الهوى المردي ومعاداة أهل الحق: أن يعلن واحد منهم ـ فيما أفاد من معرفته وثقافته الكتابية ـ عن بعثة رسول مرتقب في الحجاز. بعلامات دالة في الزمان والمكان والأوصاف، وأن هذا الرسول هو محمد بن عبد الله القرشي الهاشمي، وحين يبعث صلوات الله وسلامه عليه: يؤمن به من أخبرهم ذلك اليهودي خبرَه. أما اليهودي نفسه: فيحولُ الحسد الباغي وأسلوب المواجهة الذميمة، دونه ودون الإيمان، أعاذنا الله من هذا الكفر الأسود البغيض وأهله؟!!

لقد كان ما يخفي صدر هذا اليهودي من الضغن، أقوى من الثقافة المزعومة، والمعرفة المزوّدة بالدليل.. وكان التناقض المخزي بين ما بشّر به وبين موقفه العملي، وسارت معرفته المقطوعة عن الأخلاق والقيم في طريق ـ كما حدّث بذلك سلمة بن سلامة بن وقش ـ رضي الله عنه ـ فيما أخرج الإمام أحمد وأبو عبد الله الحاكم ـ وسار من بشرهم هو ببعثة النبي ﷺ في طريق.. وشتان بين طريقين؛ أولهما: يصل بصاحبه إلى جهنم وبئس المهاد، مع الغضب الإلهي والعنات، والثاني: يصل بصاحبه ـ إن شاء الله ـ إلى مرضاة الله تعالى وما أعد من النعيم المقيم لعباده المؤمنين المتقين.

ترى ... أية قيمة يتصورها العاقل لهذه المعرفة التي تضعف أمام البغي الظالم، فتنهزم وتتخلف، ويقوى عليها ما تغلي به الصدور، الحاقدة الحاسدة!

وفي واقع اليهود اليوم ـ وما أسوأ الاستجابة لهم تحت العناوين المزخرفة المخدِّرة ـ عشرات الأدلة التي تطلع على الناس مع مشرق كل شمس، مؤكدة التناقض المومى إليه بين المعرفة والمعتقد، وأن سلوكهم في علاقتهم بالآخرين ـ وبخاصة المسلمين منهم ـ شيء، ودعاواهم على صعيد العلم والثقافة، ومقولات التدين شيء آخر.

وقد أورد الحافظ ابن حجر ـ يرحمه الله ـ واقعة أخرى ليهودي آخر، قد تكون أوضح في الدلالة على ما نقول، رواها يعقوب بن سفيان. وبين يدي ذلك أشار إلى ما روى سلمة ـ رضي الله عنه ـ فقال: وروى ابن

إسحاق من حديث سلمة بن سلامة بن وقش وأخرجه أحمد وصححه ابن حبان من طريقه. قال: كان لنا جار من اليهود بالمدينة، فخرج علينا قبل البعثة بزمان، فذكر الحشر والجنة والنار، فقلنا له: وما آية ذلك؟ قال: فرمى بطرفه إلى السماء ـ وأنا أصغر القوم ـ فقال: إن يستنفدْ هذا الغلام عمره يدركه، قال: فما ذهبت الأيام والليالي حتى بعث الله نبيه وهو حي فآمنا به وكفر هو بغياً وحسداً».

أما عن الواقعة الأخرى: فقال ـ رحمه الله ـ: وروى يعقوب بن سفيان بإسناد حسن عن عائشة – رضي الله عنها – قالت: «كان يهودي قد سكن مكة، فلما كانت الليلة التي ولد فيها النبي ﷺ قال: يا معشر قريش هل ولد فيكم الليلة مولود؟ قالوا: لا نعلم، قال: فإنه ولد هذه الليلة نبي هذه الأمة، بين كتفيه علامة، لا يرضع ليلتين لامس عِفْريتاً من الجن وضع يده على فمه، فانصرفوا، فسألوا، فقيل لهم: قد ولد لعبد الله بن عبد المطلب غلام، فذهب اليهودي معهم إلى أمِّه فأخرجته لهم، فلما رأى اليهودي العلامة خرَّ مغشياً عليه وقال: ذهبت النبوة من بني إسرائيل، يا معشر قريش أما والله ليَسْطُوَنّ بكم سطوة يخرج خبرها من المشرق والمغرب».

سبحان الله ... هذا ما يدعوا إلى العجب الذي لا ينتهي.. يحسدون المسلمين على أن تحولت النبوة عن بني إسرائيل إليهم!! ويكفرون بما جاء الأنبياء، بل بلغت بهم العماية أن قتلوا النبيين بغير حق.. فإن كانوا مؤمنين بأن محمداً ﷺ نبي مبعوث: فعليهم أن يؤمنوا

به؛ ولكنهم يريدون أن تسير الأمور على هواهم حتى في شأن النبوة والأنبياء!! وإذا لم تستح فاصنع ما شئت.. إنهم يريدون أن تظل النبوة في بني إسرائيل، مناطَ فخرٍ كاذب واعتزاز هابط، يقودهم إلى الجحيم، لأنه مبتور عن العمل والانقياد لما دعاهم إليه المرسلون..

إنه الضغن الأسود الذي جعلهم في ظمأ دائم إلى الشر والعدوان ـ ولو كان في ذلك تكذيب عملي لما يدّعون أنهم به مؤمنون، وتناقض صريح مع المعرفة التي بها يفاخرون ـ.. وإنه الماضي الذي يبدو الحاضر أسوأ امتداداً له في السلوك المخزي والعداء الصارخ للإسلام والمسلمين.

فهل تعتبر أمتنا بالماضي الذي يؤيده الحاضر، ويؤكده أوضح تأكيد؟!

obeikandl.com

الغادرون.. والانتقام من التاريخ

كلما أمعن المتتبع لخصائص الشعوب، ووقائع التاريخ، النظرَ فيما كان من مواقف اليهود من الحق وأهله ـ بعامة ـ ومن الإسلام والمسلمين ورسولهم عليه الصلاة والسلام ـ بخاصة ـ ازداد يقيناً بأن ما زخرت به نصوص الكتاب والسنة، من تفصيل في الانحراف الذي يطبع خلائقهم، هو عين الصدق والحكمة؛ لما أن الكلام كلام العليم بخبايا نفوسهم، الخبير سبحانه بما تكنه صدورهم، كما أنه كلام رسوله الأمين الذي لا ينطق عن الهوىٰ ﴿ **إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى** ﴿٤﴾ ﴾ [النجم: ٤] مضموماً إلى ذلك ما تكرر منهم من المكر، ونكث العهد. والافتراء، والتشوف إلى كل ما فيه العدوان على دين الله، والحق والإنسان.

ثم إن ازدياد اليقين هذا: من مشتملاته: أن العدل كلَّ العدل من الله الذي لا يظلم أحداً من خلقه، كان في أن غضب ـ جل شأنه ـ عليهم ولعنهم، وضرب عليهم الذلة والمسكنة أنيما ثُقفوا، إلا بحبل من الله وحبل من الناس، وأعدَّ لهم جهنم وساءت مصيراً ﴿ **قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُوْلَئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ** ﴿٦٠﴾ ﴾ [المائدة: ٦٠].

وقد أشرت غير مرة إلى أن المسؤولية عن وعي ذلك كله وتدبره، حرصاً على نصرة الحق والذود عن حمى الدين والأمة، ووضع الأمور في

نصابها الحقيقي، مسؤوليةٌ لا يخرج المسلم من عهدتها إلا بالعمل الصادق المخلص وفق مدلولها، والأخذِ بأسباب الحيطة والمواجهة، وفق ما تمليه السنن الربانية، وإعداد القوة المستطاعة بوعي وبصيرة بالواقع؛ كلٌّ حسب موقعه وقدرته، والثغر الذي أقامه الله عليه.

وغير خافٍ أن الصدقَ في إنكار الواقع الذي تتفتَّت له الأكباد، في علاقة أمتنا باليهود واستفظاعَه، يقتضي الأمة قراءة متدبرة واعية لما جاءت به الكلمات الهاديات من تلك الحقائق، وما وعته ذاكرة السيرة والتاريخ الإسلامي، من أحداث تزيد القناعة رسوخاً، والطمأنينة عمقاً وفاعلية، بحيث ينعكس ذلك عملاً منهجياً مخلصاً، يتم بالعزيمة والجدِّ، وينأى عن سلطان الأنا ورغبات المنافقين، وحركةً يقودها مقنع القادرين المخلصين بأنه لا يجدي في معاملة أولئك الأناسي، إلا استخدام اللغة التي استخدمها رسول الله ﷺ المؤيد بالوحي ـ وهذا لا يتعارض مع تطور الأساليب ـ والحرصُ على مرضاة الله في الإعداد والمواجهة في كل ميدان ـ وما أكثر الميادين ـ كيما يتحقق نصر الله، وفقاً لسنته الحكيمة التي لا تتبدل، كما جاء في قوله جل شأنه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ۝٧﴾ [محمد: ٧] ﴿إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ۝١٦٠﴾ [آل عمران: ١٦٠] ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ۝٢١٤﴾ [البقرة: ٢١٤].

لم يكن بد من سوق هذه الكلمات، وأنا بسبيل التذكير بحقيقة تبدو الغفلة عنها من الأمراض التي ابتليت بها الأمة.. وهي أن اليهودي ـ وقل مثل ذلك فيمن هو على شاكلته من أعداء الله على تنوع الأساليب والوسائل ـ مهما أوتي من زخرف القول، والقدرة على العبث ببعض العقول، تظل بعض منطلقاته في علاقته بالمسلمين وحضارة الإسلام، قائمة على الانتقام من التاريخ الذي بدأ من بعثة نبينا محمد ﷺ، والعطش القاتل إلى التدمير والإفناء لو أمكن ذلك. واتخاذ المستطاع من الأسباب ـ ومن ذلك تسخير العلم والإعلام والانحراف الخلقي وتهديم القيم تحت شتى العناوين ـ في سبيل إيذائهم، ووضع المعوقات التي تحول دونهم ودون القضاء على ماهم مبتلون به من التخلف عن ركب الإسلام في حقيقته وقطع المسافة بين الواقع، وبين ما يجب أن يكون.

ومعلوم أن إغماض العين عن هذه الحقيقة، على ساحة المواجهة والإعداد: أدنى درجات الحكم عليه، أنه بله وغفلة، وأعلاها، أنه مخالفة للدين والواقع.

ولقد كان واضحاً من بعض النصوص التي ألمنا بها من قبل، أن تحية نفر من اليهود للنبي ﷺ كانت تحمل الدعاء بالموت أو السآمة من الدين، وأن ذلك كان يتكرر مرة بعد مرة. وأوضح صلوات الله وسلامه عليه ـ كما دلت بعض الروايات ـ أن الذي يدعو اليهود إلى هذه التحية الظالمة التي لم يحيِّه بها الله: حسد يأكل قلوبهم، وبغي لا يفارق نفوسهم في ليل أو نهار..

وهذا الذي يراد التذكير به، يقودنا إلى ما ثبت من أن الموت الذي كانوا يدعون به عندما يقولون: «السام عليكم» قد خرج في بعض صوره إلي أكثر من محاولة يراد من ورائها اغتيال الرسول ﷺ، وحيث يكونون هم البادئين بالشر غدراً، أو مكراً وتبييتاً للسوء؛ فمن المعلوم أنه عليه الصلاة والسلام لما قدم المدينة مهاجراً، أحسن معاملتهم، وضمن لهم ـ وهو في موقع القوة ـ حقوق الحياة الكريمة على خير وجه من الدقة وتكريم الإنسان؛ وذلك بالوثيقة المشهورة، وأعطاهم عهداً وذمة على أن لا يقاتلهم ولا يقاتلوه، وأن عليهم بعض الواجبات الدفاعية والمالية عندما يقتضي الأمر، ولكن سرعان ما نقضوا العهد الذي كان بينه وبينهم، فأحل الله بهم بأسه الذي لا يرد، وأنزل عليهم قضاءه الذي لا يُصد.

وقد وقعت حادثة اقتضت أن يذهب رسول الله ﷺ إلى بني النضير فكان منهم الغدر ومحاولة الاغتيال؛ وقصة ذلك ـ كما هي عند ابن إسحاق وغيره ـ أنه لما قتل أصحاب بئر معونة من قتلوا من أصحاب النبي ﷺ وكانوا سبعين، وأفلت منهم عمرو بن أمية الضَّمري؛ فلما رجع ـ رضي الله عنه ـ، أخبر رسول الله ﷺ، فقال له رسول الله عليه الصلاة والسلام: «لقد قتلتَ رجلين لأدينَّهما» يعني لأدفعن ديتيهما. وكان بين بني النضير وبين بني عامر حلفٌ وعهد، فخرج رسول الله ﷺ إلى بني النضير ـ بناءً على العهد ـ ليستعينهم في دية ذينك الرجلين، وكانت منازل بني النضير ظاهر المدينة على أميال منها شرقيَّها. فلما وصل الرسول ﷺ وحدّثهم بما أرد، قالوا: نعم يا أبا القاسم نعنيك على ما أحببت مما استعنت بنا عليه، ثم خلا بعضهم ببعض، وقد تحركت في

نفوسهم كوامن الغلِّ الدفين، وأزمعوا الغدر برسول الله ﷺ ـ وهو في منازلهم وقتلَه غيلةً. وهكذا قال بعضهم لبعض: إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه ـ ورسول الله ﷺ إلى جنب جدار بيوتهم ـ فمن رجل يعلو على هذا البيت، فيلقي عليه صخرة، فيريحنا منه!؟ فانتدب لذلك عمرو بن جحاش بن كعب أحدهم فقال: أنا لذلك، فصعد ليلقي عليه صخرة كما قال ـ ورسول الله ﷺ في نفر من أصحابه فيهم أبو بكر وعمر وعلي ـ رضي الله عنهم ـ فأتى رسولَ الله ﷺ الخبرُ من السماء بما أراد القوم، فلقوا رجلاً مقبلاً من المدينة، فسألوه عنه، فقال: رأيته داخلاً المدينة، فأقبل أصحاب رسول الله ﷺ حتى انتهوا إليه، فأخبرهم الخبر بما كانت يهود أرادت من الغدر به، وأمر رسول الله ﷺ بالتهيؤ لحربهم والمسير إليهم..

هكذا لم يُقم هؤلاء الغدارون ـ تحت وطأة الحسد والغل ـ وزناً للعهد الذي كان في صالحهم، قبل أن يكون في صالح المسلمين ـ وعلى رأسهم رسول الله ﷺ ـ كما أنهم لم يلتفتوا أيَّ التفاتة إلى مقدار الشناعة التي يُقدمون عليها في الغدر به ـ صلى الله وسلم وبارك عليه ـ حين يحاولون اغتياله وهو إلى جنب جدار بيوتهم، بعد أن تظاهروا بالاستجابة لطلبه المتسق مع وثيقة العهد، الأمر الذي يدل على أن هذا الصنيع، ذو نسب أصيل بالغ الحطة إلى تحية الدعوة عليه بالموت!! فهل من سبيل بعد هذا إلى حسن الظن؟ ما أحسب أن ذلك يمكن أن يكون إلا إذا اضطربت الموازين واستبدل الذي هو أدنى ـ على صعيد الفكر وتحليل الوقائع ـ بالذي هو خير.

ولنفترض جدلاً أننا لم نسمِّ الأمور بغير أسمائها، ولم نخضع لتزيين الشياطين!! فهل ننسى أن هذا الذي نذكِّر به، واقعة تأخذ مكانها ضمن عدد لا يستهان به من الوقائع؟ وإنما يكون توكيد ذلك بوضع الوثيقة التي حملت العهد موضعها المناسب، ثم النظر إلى النسبة كمّاً وكيفاً ـ بين ما اجترحته أيدي يهود، وبين السنوات العشر التي كانت الوعاء الزمني لتعاملهم في حالات السلم والحرب مع المسلمين في عصر النبوة، وإن كانوا قد بدؤوا بالأذية مبكرين قبل هجرة المصطفى صلوات الله وسلامه عليه.

أما عن محاولة الاغتيال بوضع السم في الطعام: فقد كانت محاولة بالغة الإثم والانحدار المقيت!! ولكن اليهود ببغيهم العاتي، ودخيلتهم المبرّأة من أي معنى من معاني الخير ـ إلا أن يكون في ذلك مصلحة تمليها الضوابط اليهودية ـ أقول: ولكن اليهود؛ هم اليهود دونما فارق في الزمان أو المكان، أو الأدمغة التي تدير معاركهم مع الحق وأهله، من أبناء الإسلام.

أنظر في خبر المحاولة فأجدني ـ كما سبق ذلك ـ أمام عدد من الروايات التي تفيد أن شاة مسمومة أهديت إلى الرسول عليه الصلاة والسلام، حيث بيّت القوم أمر الاغتيال، وأن يكون عن هذه الطريق الموهمة التي ظاهرها الإكرام المنبئ عن شيء من الرضى عن منهج رسول الله ﷺ، وقَبِلَ الهدية صلوات الله وسلامه عليه، في ضوء الهدف الكبير هدف الدعوة إلى الله بالحكمة التي تضع الإحسان موضعه، والحرب موضعها، حتى مع اليهود!!

وكـان ذلك في أعـقـاب غـزوة خـيـبـر التي وقـعـت في السنة الـسـابعـة للهجرة، ونصر الله فيها المسلمين على أعدائهم ـ بعد مواجهة مريرة ـ نصراً مؤزراً زاخراً بالعبر والدروس.

وموعدنا ـ إن شاء الله ـ صفحات قادمات نعاود فيها النظر فيـما يتسع المقام لذكره من الروايات بغيـة الاستنارة بعطائها، والانتفاع بما تدل عليه وتهدي إليه من دروس حافلة بالعظة والتوجيه السديد الرشيد.

وصلى الله وسلم وبارك على من أدى الأمانة، وبلغ الرسالة، وصبر وصابر، وجاهد في الله حق جهاده حتى أتاه اليقين..

ظاهرة الغدر.. أيضاً

لم يكن عجباً من العجب، أن يعمل اليهود على أن يلقى رسول الله ﷺ ـ فداه أبي وأمي ـ مصرعه بأية وسيلة يرونها. ولقد سوّلت لهم أنفسهم التي ما عرفت إلا الحقد والضغينة والحسد أن يعمدوا إلى إزهاق روحه من طريق السم؛ فأهدوا إليه ـ وياله من أسلوب بالغ الدناءة والخسّة ـ شاةً مسمومة ليعمل السم عمله، وبذلك يروون الغل الذي يأكل منهم القلوب، ويحولون ـ على زعمهم ـ دونه عليه الصلاة والسلام، ودون أن يحقق ما يريد من إعلاء كلمة الله في الأرض، وتمكين الدين للمسلمين.

أجل لم يكن ذلك عجباً من العجب، ولكن المهم أن تكون الأمة على ذكر من ذلك كيما تحسن فقه الترابط بين الجزئيات وكلياتها التي تنتمي إليها، وكيما يتمَّ لها الانتفاع بدلالته البعيدة في نفوس القوم، وما يحمل من مؤشرات تكشف عما ينطوون عليه من حب الأذى، لمن يخالفهم في المعتقد والاتجاه، دون مبالاة بتجاوز الحدود التي تصون الحق وتحميه، وانتاك حرمات الدين والأخلاق، وكل ما به تتحقق إنسانية الإنسان.

ومن الجدير بالذكر: أن حديث الشاة المسمومة أخرجه أحمد والبخاري ومسلم وأبو داود والدارمي والحاكم والبيهقي وغيرهم، كما رواه محمد بن إسحاق في السيرة. ولعل من المفيد البدء بإيراد بعض الروايات التي حملت الإشارة إلى جماعة من اليهود ـ عموماً ـ في وضع

السم، دون تحديد إنسان بعينه. من ذلك ما روى البخاري في كتاب الجزية والموادعة من الجهاد باب «إذا غدر المشركون بالمسلمين هل يعفى عنهم» من جامعه الصحيح حيث قال ـ رحمه الله ـ: حدثنا عبد الله بن يوسف قال: حدثنا الليث قال: حدثني سعيد عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أنه قال: «لما فتحت خيبر أهديت للنبي ﷺ شاةٌ فيها سُمٌّ، فقال النبي ﷺ: اجمعوا لي من كان ههنا من يهود، فجُمعوا له، فقال: إني سائلكم عن شيء، فهل أنتم صادقيَّ عنه؟ فقالوا: نعم، قال لهم النبي ﷺ: من أبوكم؟ قالوا: أبونا فلان، فقال: كذبتم بل أبوكم فلان، قالوا صدقت: قال: فهل أنتم صادقيَّ عن شيء إن سألتُ عنه؟ فقالوا: نعم يا أبا القاسم وإن كذبنا عرفت كذبنا كما عرفته في أبينا. فقال لهم رسول الله ﷺ: من أهل النار؟ قالوا: نكون فيها يسيراً ثم تخلفوننا فيها، فقال النبي ﷺ: اخسؤوا فيها والله لا نخلفكم فيها أبداً. ثم قال: هل أنتم صادقيَّ عن شيء إن سألتكم عنه؟ قالوا: نعم يا أبا القاسم. قال: هل جعلتم في هذه الشاة سماً؟ قالوا: نعم: قال: ما حملكم على ذلك؟ قالوا: إن كنت كاذباً نستريح، وإن كنت صادقا نبياً لم يضرك» ورواه الدارمي بهذا اللفظ وأحمد.

وتجدر الإشارة إلى أن من فقه الإمام البخاري، أنه جاء بهذه الرواية نفسها ـ على اختلاف يسير في بعض الألفاظ ـ من طريق آخر عن أبي هريرة أيضاً ولكن تحت باب «ما يذكر في سُم النبي ﷺ رواه عروة عن عائشة عن النبي ﷺ» من كتاب الطب إذ قال هناك: حدثنا قتيبة قال: حدثنا الليث عن سعيد بن أبي سعيد عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ

قال: لما فتحت خيبر أهديت لرسول الله ﷺ شاة فيها سم . . . » الحديث، ولكن جاء في هذه الرواية « فهل أنتم صادقوني » كما جاء فيها « قالوا: صدقت وبررت » . والملاحظ أن الرواية السابقة جاءت بلفظ « صادقيَّ » بينما جاءت هذه الرواية بلفظ « صادقوني » ثلاث مرات. وقد ذهب ابن التين - كما نقل عنه الحافظ ابن حجر - إلى أن الصواب « صادقيَّ » كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ﴾ وكما في الحديث « أو مخرجيَّ هم » . وأجاب عن ذلك الحافظ بما نقل عن بعض علماء العربية من جواز أن تكون النون الباقية في « صادقوني » نون الوقاية، وجواز أن تكون نونَ الجمع.

ومن فقه البخاري أيضاً: أنه أخرج القصة مرة ثالثة في المغازي « باب الشاة التي سمت النبي ﷺ » ولكن برواية مختصرة جاءت بلفظ « لما فتحت خيبر أهديت لرسول الله ﷺ شاة فيها سُمٌّ » .

وأنت ترى أن الأسلوب الذي سلكه أولئك اليهود، الذين سألهم رسول الله ﷺ عما سأل، كان أسلوباً في غاية اللين - كما يبدو - لما أن اللقاء حصل في أعقاب خيبر التي هزموا فيها شر هزيمة، مع الدعاوى العريضة، وكثافة الاستعداد والحصون المحصَّنة المنيعة. ثم إنه أسلوب يتفق مع وضعهم السم في ذلك الطعام المهدى للرسول عليه الصلاة والسلام، عنوانَ اللؤم المكر والغدر، وكلامهم على هذه الصورة من اللين المتكلّف يذكرنا بقول الشاعر:

خشونة الصِّلِّ عقبى ذلك اللين

والصلُّ: الحيَّة السامة التي لا تنفع معها الرقية، وكم هي ناعمة الملمس، أو الحيّة التي تقتل إذا نهشت من ساعتها.

وغير خاف أن اليهود كذبوا رسول الله ﷺ بثنتين، وصدقوه بتعليل خبيث لفعلتهم النكراء في الثالثة؛ فحين سألهم من أبوكم؟ كذبوا في الجواب، وكشف رسول الله ﷺ عن هذا الكذب فيما أجابوا به، وعندها قالوا: صدقت وبررت ـ من البر ـ وحين سألهم من أهل النار؟ لم يبالوا أن يتسافهوا في الجواب فيقولوا: نكون فيها يسيراً ثم تخلفوننا فيها!! أرادوا أنهم يمكثون في جهنم ـ التي هي مأواهم وبئس المصير ـ عدداً محدوداً من الأيام، وبما أنهم أبناء الله وأحباؤه ـ على زعمهم ـ يخرجون منها إلى الجنة، ثم يخلفهم المسلمون فيستقرون فيها؛ فكان أن عَرَّى الصادق الأمين صلوات الله وسلامه عليه هذا التخرُّصَ في ادعائهم الباطل فقال: «اخسؤوا فيها والله لا نخلفكم فيها أبداً». قال ذلك زجراً لهم بالطرد والإبعاد، أو دعاءً عليهم بذلك نافياً ـ على التأبيد ـ دعواهم أن المسلمين يخلفونهم في نار الجحيم التي هي مأواهم على وجه الخلود. فقوله ﷺ: «والله لا نخلفكم فيها» مؤكد لحقيقة أن من يدخل النار من عصاة المسلمين، لابد أن يخرج منها ـ بفضل الله ورحمته ـ فلا يتصور أن يخلف غيره أصلاً.

ودعوى اليهود ـ المزعومة ـ أنهم لا يمكثون في النار إلا أياماً معدودة، قائمة على كونهم أهلَ القرب من الله ـ كما سبقت الإشارة ـ وهو استدلال أكذب وأعتى من الدعوى. وقد أشير إلى ذلك في سورة البقرة بدءاً من الآية الثمانين؛ حيث جاء ذكر تلك الدعوى ـ التي تبعث على

السخرية ـ وتفنيدها، في قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَى مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨١﴾﴾ [البقرة: ٨٠ – ٨١].

وقد جاء في بعض الروايات عند أهل التأويل، أنهم عنوا بالأيام المعدودة الأربعين يوماً مدة عبادتهم العجل... وسنأتي على تفصيل ذلك في حينه إن شاء الله.

وفي سورة آل عمران نقرأ قول الله تباركت أسماؤه، بدءاً من الآية الثالثة والعشرين: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لاَّ رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [آل عمران: ٢٣ – ٢٥].

أما عن الذي صدَق اليهود فيه النبيَّ عليه الصلاة والسلام ـ وهو بيت القصيد فيما نحن فيه ـ فهو اعترافهم أنهم جعلوا في الشاة المهداة له سماً عندما سألهم عن ذلك، ولكنه صدقٌ قرنوه بتعليل يهودي خبيث ممجوج، واعتذارٍ أسوأ منه وأخبث؛ فكان العذر أقبح من الذنب؛ ذلك قولهم دونما حياء أو أثارة من خجل: «إذا كنت كاذباً نستريح منك وإن كنت نبياً لم يضرَّك» سبحان الله !! ذلكم هو منهج إبليس؛ الجريمة النكراء، مع التعالي البارد السخيف!! يقدمون على هذا الإجرام،

فيحاولون قتل سيد المرسلين صلوات الله وسلامه عليه بالسم، والسم في ماذا؟ في طعام يهدونه له ـ مشتركين أو عن طريق امرأة منهم يرضون عملها ـ كما في بعض الروايات ـ بعد أن بيتوا ذلك بليل، ورسموا خطواته وكيف يجب أن يكون.

ألا ما أحوج المسلمين أن يفيدوا من فقه هذه الواقعة!! مزاولةٌ للجريمة في أبشع صورها، واعتذار يكاد يكون أشنع من الجريمة نفسها، وجراءة على الله والحق وبين الناس، لاتكاد تصدر إلا عن هؤلاء الذين أثقلتهم أوزارهم وأظلمت قلوبهم، وكان من عمى بصيرتهم: هذا التمادي في الضلال؛ إجراماً وتسويغاً للإجرام.

كل هذا يجري وهم قانعون ـ على ساحة العلم بالكتاب ـ بأن محمداً ﷺ الذي جعلوا من محاولة إزهاق روحه بالسم، اختباراً للصدق أو غيره ـ على ما يزعمون ـ رسولٌ من عند الله حقاً وصدقاً، أخبرهم عن صفاته بالتفصيل كتابهم، فهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم، بل كانوا يستفتحون به على الذين كفروا، أي يطلبون النصر عليهم، حيث يقولون: اللهم انصرنا عليهم بالنبي المبعوث آخر الزمان.

ألا إنه الحسد الذي عبث بالعقول، والبغي الذي ران على القلوب؛ فكان الكفر البواح، وكان الغدر والدس والافتراء والمكر، بل كانت الحرب التي اتخذت أكثر من لون وصورة. ومن ذلك هذا الذي نرى في الحديث الذي أسعدنا بعطائه المستنير في هذه الرحلة المباركة، التي لابد من متابعتها في صفحات قريبات إن شاء الله.

والله المسؤول أن يشرح الصدور لفقه تلك السلسلة النكدة من وقائع الماضي التي تشير إلى ظاهرة الحرص على الأذى؛ غدراً ونقضاً للمواثيق، كي يحصل الانتفاع بها في الحاضر، فالكلام كلام الله، ومن أصدق من الله حديثاً!! والبيان بيان رسول الله عليه الصلاة والسلام الذي لا ينطق عن الهوى، والوقائع العملية في وضوحها البيّن لا تحتمل أيَّ لبس أو غموض. والله المستعان.

همسة مبكرة في أذن التاريخ

على صعيد المواجهة بين الحق والباطل، كان تمالؤ اليهود على الغدر المغرق في الحطة، بالنبي ﷺ للقضاء على حياته، همسةً عميقة مبكرة في أذن التاريخ، مؤذنةً بأن ذوي الأحلام الشيطانية؛ من الممكن أن يقوموا بأي عمل ـ مهما بلغ من الإثم والعدوان ـ ما داموا يرون فيه تحقيق باطلهم، والانتصارَ على أهل الحق الذين يحتكمون إلى شرعة السماء، ويستمسكون بما تمليه الأخلاق التي ترتد إلى الدين.

ولون الغدر الذي أعنيه: ما كان من واقعة الشاة المسمومة التي أهديت إليه من يهود خيبر ـ كما سبق تفصيله ـ؛ وبعضها يشير إلى امرأة يهودية دون تسميتها، وبعضها يشير إلى أن اسمها زينب، ولكن تلك الروايات ـ بمجموعها ـ تدل دلالة واضحة على أن اليهود قد بيتوا هذه المكيدة، وأعلنوا في حوارهم مع الرسول ﷺ بعدها اعترافهم بذلك، متعللين بعلة هي دون أن توصف بالواهية.

وعلى هذا: لا غنى عن الإشارة، إلى ما يعين على استجلاء الحقيقة من تلك الروايات!! وقد وقفنا من قريب على روايات ثلاث أخرجها الإمام البخاري؛ إحداها في الجزية والموادعة، والثانية في الطب، والثالثة ـ وهي المختصرة ـ في المغازي.

وهذه رواية أخرى عنده صريحة، في أن التي قامت بإهداء الشاة

المسمومة امرأة يهودية؛ قال ـ رحمه الله ـ في «باب قبول الهدية من المشركين» من كتاب الهبة في الجامع الصحيح: حدثنا عبدالله بن عبدالوهاب قال: حدثنا خالد بن الحارث قال: حدثنا شعبة عن هشام ابن زيد عن أنس بن مالك - رضي الله عنه -: «أن يهودية أتت النبي ﷺ بشاة مسموة فأكل منها فقيل: ألا نقتلها؟ قال: لا. فما زلت أعرفها في لهوات رسول الله ﷺ».

اللهوات: بفتح اللام جمع لهاة وهي سقف الفم أو اللحمة المشرفة على الحلق، وقيل: أقصى الحلق، وقيل: ما يبدو من الفم عند التبسم. وقال ابن الأثير في النهاية: (وفي حديث الشاة المسمومة «فما زلت أعرفها في لهوات رسول الله ﷺ») اللهوات: جمع لهاة وهي اللَحمة في سقف أقصى الفم.

وهناك مايدل على أن هذه المرأة اعترفت بأنها صانعة الجريمة، وأنها أرادت بذلك قتله عليه الصلاة والسلام. أخرج الإمام مسلم بسنده عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - «أن امرأة يهودية أتت رسول الله ﷺ بشاة مسمومة، فأكل منها، فجيء بها إلى رسول الله ﷺ فسألها عن ذلك؟ فقالت: أردت لأقتلك. قال: «ما كان الله ليسلطك على ذاك». قال: أو قال: «عليَّ» قال: قالوا: ألا نقتلها؟ قال: لا. فما زلت أعرفها في لهوات رسول الله ﷺ» ورواه أبو داود في كتاب الديات من «السنن». قوله: فما زلت أعرفها، أي العلامة، كأنه بقي للسم علامة وأثر من سواد أو غيره.

وفي هذه الرواية عند مسلم وأبي داود ـ كما يلاحظ ـ شيء من التفصيل لما جاء عند البخاري إذ جاءت الرواية هناك مختصرة لم يذكر فيها سؤال رسول الله ﷺ اليهودية عن سبب فعلها وما أجابت به.

وفي رواية للإمام أحمد ما يدل على أن المرأة ـ مع إقرارها ـ علّلت عملها المشؤوم، بما علّل به قومها؛ من أنه ﷺ إن كان نبياً، فإن الله سيطلعه على ما أريد له، أو أنه لا يضره السم، وإن كان غير ذلك: أريح الناس منه!! سبحان الله ما أسوأ تأويلات شياطين الإنس!!

وجاء في المسند قول عبد الله بن الإمام أحمد ـ رحمهما الله ـ: حدثني أبي قال: حدثني شُريح قال: حدثنا عباد عن هلال عن عكرمة عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ «أن امرأة من اليهود أهدت لرسول الله ﷺ شاة مسمومة، فأرسل إليها فقال: ما حملك على ما صنعت؟ قالت: أحببت ـ أو أردت ـ إن كنت نبياً، فإن الله سيطلعك عليه، وإن لم تكن نبياً، أريح الناس منك، قال: وكان رسول الله ﷺ إذا وجد من ذلك شيئاً احتجم. قال: فسافر مرة، فلما أحرم وجد من ذلك شيئاً فاحتجم».

وأخرج أبو داود في كتاب الديات من «السنن» والدارمي في باب «ما أكرم الله نبيه ﷺ من كلام الموتى» من سُننه أيضاً عن ابن شهابٍ الزهري قال: كان جابر بن عبد الله ـ رضي الله عنهما ـ يحدث «أن يهودية من أهل خيبر سمّت شاةً مصليّةً ثم أهدتها لرسول الله ﷺ، فأخذ رسول الله ﷺ منها الذراع، فأكل منها، وأكل رهط من أصحابه معه، ثم قال لهم رسول الله ﷺ ارفعوا أيديكم، وأرسل عليه الصلاة والسلام إلى اليهودية،

فدعاها، فقال لها: أسممت هذه الشاة؟ فقالت: نعم،ومن أخبرك؟ فقال النبي ﷺ: أخبرتني هذه في يدي ـ للذراع ـ فقالت: نعم، قال: فما أردت إلى ذلك؟ قالت: قلت: إن كان نبياً لم يضرّه وإن لم يكن نبياً استرحنا منه. فعفا عنها رسول الله ﷺ ولم يعاقبها، وتوفي بعض أصحابه الذين أكلوا من الشاة»، واحتجم النبي ﷺ على كاهله من أجل الذي أكل من الشاة، حجمه أبو هند بالقَرن والشَّفرة، وهو مولى لبني بياضة من الأنصار. ولفظ الدارمي: حجم أبو هند مولى بني بياضة بالقَرن والشَّفرة، وهو من بني ثمامة وهم حي من الأنصار.

مصليَّةً: أي مشوية بالصّلاء (النار). والحديث بهذه الرواية منقطع عند المحدثين لأن ابن شهاب لم يسمع من جابر بن عبدالله. وجاء في رواية أخرى للدارمي« .. فقال في مرضه ـ صلى الله عليه وسلم ـ ما زلت من الأكلة التي أكلت بخيبر فهذا أوان انقطاع أبهري» رواه أيضاً أبو داود مرسلاً ووصله البيهقي عن أبي هريرة.

ومسألة العفو عن هذه المرأة أو قتلها: عرض لها العلماء بشيء من التفصيل إذ هنالك روايات تنص على أنه ﷺ قتلها، وكان لابد من التعليل والبيان.

والمرأة ـ كما يروي ابن إسحاق في السيرة وغيره ـ هي زينب بنت الحارث بن سلام امرأة سلاّم بن مشكم، وهي أخت مَرحب اليهودي، كما جاء عند أبي داود أو بنت أخي مرحب ـ كما هو عند البيهقي ـ ووافق موسى بن عقبة أنها زينب بنت الحارث. قال ابن إسحاق في السيرة: «لما

اطمأن النبي ﷺ بعد فتح خيبر أهدت له زينب بنت الحارث امرأة سلاّم بن مشكم شاة مشويَّةً، وكانت سألت: أيُّ عضو من الشاة أحب إليه؟ قيل لها: الذراع، فأكثرت فيها من السُّم؛ فلما تناول الذراع لاك منها مُضغة ولم يُسغها، وأكل معه بشر بن البراء، فأساغ لقمته... فذكر القصة، وأنه ﷺ صفح عنها وأن بشر بن البراء مات منها». وجاء في رواية للبيهقي عن أبي هريرة قال: «فما عرض لها» وفي رواية أخرى عن جابر «فلم يعاقبها» وروى عبد الرزاق في مصنّفه بالسند إلى أبي بن كعب مثل ذلك وزاد «فاحتجم على الكاهل» قال: قال الزهري: فأسلمت فتركها. قال معمر: والناس يقولون: قتلها. وروى أبو داود أيضاً أنه قتلها.

وأخرج ابن سعد في كتابه «الطبقات الكبرى» عن شيخه الواقدي بأسانيد متعددة هذه القصة التي تحكي مسلك اليهود مع النبي ﷺ والمسلمين مطوّلةً، وجاء في آخرها: قال: «فدفعها إلى ولاة بشر بن البراء فقتلوها» قال الواقدي: وهو الثبتُ. قال البيهقي: يحتمل أن يكون تركها أولاً ثم لما مات بشر بن البراء من الأكلة قتلها. وجنح إلي ذلك السهيلي في «الروض الأنف» فقال: (ووجه الجمع بين الروايتين أنه عليه الصلاة والسلام صفح عنها أول الأمر، لأنه كان ﷺ لا ينتقم لنفسه، فلما مات بشر بن البراء من تلك الأكلة، قتلها، وذلك أن بشراً لم يزل معتلاً من تلك الأكلة، حتى مات منها بعد حول. وقال النبي ﷺ عند موته: «ما زالت أكلة خيبر تعاودني فهذا أوان قطعت أبهري، وكان ينفث منها مثل عجم الزبيب». وتعاودني: أي تعتادني المرة بعد المرة.

هذا: وقد روى معمر بن راشد في جامعه عن الزهري أنه قال: «أسلمت فتركها النبي ﷺ». قال معمر: هكذا قال الزهري: أسلمت، والناس يقولون: قتلها وأنها لم تسلم. قال الحافظ في «فتح الباري»: ولم ينفرد الزهري بدعواه أنها أسلمت؛ فقد جزم بذلك سليمان التيمي في مغازيه ولفظه بعد قولها: وإن كنت كاذباً أرحت الناس منك: «وقد استبان لي الآن أنك صادق، وأنا أشهدك ومن حضر أني على دينك، وأن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله» قال: فانصرف عنها حين أسلمت.

وجاء في «الإصابة في تمييز الصحابة» للحافظ ابن حجر: (زينب بنت الحارث بن سلام الإسرائيلية؛ ذكر معمر في جامعه عن الزهري «أنها اليهودية التي كانت دسَّت الشاة المسمومة للنبي ﷺ فأسلمت، فتركها النبي ﷺ». وقال غيره: إنه قتلها، وقيل: إنما قتلها قصاصاً لبشر بن البراء لأنه كان أكل معه الشاة فمات بعد حول. وأورد السهيلي في «الروض الأنف» ما جاء في جامع معمر بن راشد أيضاً: من أن أم بشر بن البراء قالت للنبي ﷺ في المرض الذي مات منه: ما تتهم يا رسول الله؟ فإني لا أتَّهِم ببشر إلا الأكلة التي أكلها معك بخيبر فقال: «وأنا لا أتهم بنفسي إلا ذلك، فهذا أوان قطعت أبهري».

ومهما يكن من أمر: فإن اختلاف الأقوال في إسلام اليهودية المذكورة، التي وُكل إليها تنفيذ المؤامرة المنكرة الهابطة على حياة النبي ﷺ لا يغيِّر من واقع التآمر اليهوديِّ شيئاً، ذلك التآمر الذي يعدو على

الحق الأبلج المتمثّل في علمهم اليقيني أن الذي يأتمرون به ليقتلوه غيلة بدس السم، بعد أن أخفقوا في المواجهة، رسول من عند الله مصدّق لما أنزل الله من التوراة والإنجيل وغيرهما من وحي السماء، وكانوا من قبل يستفتحون به على الذين كفروا. صحيح أن الحرب بين الحق والباطل سجال، ولكن الرسول ﷺ بدأهم أولَ ما بدأهم بالإحسان، وكتب لهم الوثيقة التي تحفظ حقوقهم كاملة غير منقوصة، ولكنهم أبوا إلا الإساءة والتسربل بسربال المكر والغدر، وكل أولئك من نفثات الحسد والغيظ، والحقد الدفين.

ولقد ثبت أنهم ركبوا أيضاً متن الكذب والنفاق، في دعوى أن ما عمدوا إليه من إطعامه الشاة المسمومة، كان القصد من ورائه اختبار صدق دعوى النبوة؛ لأن الرسول ﷺ أطلعه الله على ما عمدوا إليه، ودلّ ذلك على كمال صدقه ﷺ؛ حتى على رأي من يرون إسلام زينب: فإن أمر بهتان القوم يزداد انكشافاً، وإلا فما معنى انتظار ما يدل على الصدق أوغيره إن لم تكن لذلك ثمرة، ولِمَ لم يؤمنوا بعد هذا الوضوح؟؟.

openkand.com